

تقدیم تاریخ تمدن اسلامی

(بقلم الشیخ شبلی نعمانی)

۲

﴿ مثالب بنی أمیة ﴾

المقصد الذي جعله المؤلف نصب عينه ومرمى غايته هو ان الامة العربية اذا بقيت على صرافتها فهي جامعة لجميع اشياء الشر ، أي الجور والقسوة والهمجية وصفك الدماء والقتل بالناس . ولكن لا كان لا يقدر على اظهار هذا المقصد تصريحا اختلف في ذلك فمضى للذهب وجعل الكلام طيب الظاهر وذلك بأن قسم عصر الاسلام الى ثلاثة ادوار - فمدح سياسة الخلفاء الراشدين وقال بعد مدحها .

« على أن سياسة الراشدين على الاجمال ليست مما يلائم طبيعة العمران أو تقتضيه سياسة الملك وانما هي خلافة دينية توقفت الى رجال يندر اجتماعهم في عصر . فاهل العلم بالعمران لا يرون هذه السياسة تصلح لتدبير الممالك في غير ذلك العصر العجيب وان انقلاب تلك الخلافة الدينية الى الملك السياسي لم يكن منه بد (الجزء الرابع صفحة ۲۹ و ۳۰)

قائمت بذلك ان سياسة الخلفاء الراشدين ليست فيها اسوة للناس وانما من مستنبات الطيعة ، أما دور العباسيين فمدحه ولكن لا لاجل انه دولة عربية بل لسكونها فارسية مادة وقواماً مؤثماً ونظاماً وصرح بذلك فقال :

« دعونا هذا العصر فارسيا مع انه داخل في عصر الدولة العباسية لان تلك على كونها عربية ، من حيث خلفاءها ولقبها وديانها فهي فارسية من حيث سياستها وإدارتها لان الفرس نصرها وابدوها ثم هم نظموها حكومتها وأداروا شؤونها ومنهم وزراءها وامراءها وكتابها وحجلبها » (الجزء الرابع صفحة ۱۰۶)

ثم اشار في غير موضع الى أن الدولة العربية الساذجة انما هي دولة بنی أمیة فقال :

(المارچ ۲) (۱۶) (المجلد الخامس عشر)

« وجملة القول ان الدولة الاموية دولة عربية » (الجزء الرابع صفحة ١٠٣)
 « وظل العرب في أيام بني أمية على بداهتهم وجفاوتهم وكان خلفاؤها يرسلون
 اولادهم الى البادية لاقتان الافنة واكتساب اساليب البدو وآدابهم (الجزء الرابع
 صفحة ٦١)

ولما ثبت ان خلافة الراشدين لم تكن تلام النظام الطبيعي وان دولة بني العباس
 دولة فارسية وان الباقية على صرافها هي الدولة الاموية اخذ يمدد مثالب بني أمية
 تحت عنوانات مستترة منها الاستخفاف بالدين وأهله ، ومنها الاستهانة بالقرآن والحرمين ،
 ومنها الفتك والبطش ، ومنها قتل الاطبال ، ومنها خيانة الرؤس . وأن في معالومي هذه
 الضوائف من الافك والاختلاق والتعريف والتبديل بما تجاوز الحد وخروج عن
 طور القياس . والآن اذكر نبذاً منها واكشف عن جلية حالها ،

﴿ الاستهانة بالقرآن والحرمين ﴾

قال المؤلف تحت هذا العنوان :

«اما عبد الملك فكان يرى الشدة وبجاءه بطلب القلب بالقوة والنف ولو خالف
 الدين . لانه صرح باستهانة الدين منذ ولي الخلافة ... ذكر وانه لما جاؤه بنجر الخلافة
 كان قاعداً والمصحف في حجره فاطبقه وقال: هذا آخر العهد بك - او - هذا فراق
 بني وينك . فلانغرو بمد ذلك اذا اباح لسانه الحجاج ان يضرب الكعبة بالمنجنيق
 وان يقتل ابن الزبير ويحترق رأسه يده داخل مسجد الكعبة . وظلوا يقتلون الناس
 فيها تلاماً وهدموا الكعبة وهي بيت الله عندهم وأوقدوا النيران بين احبارها
 واستارها» (الجزء الرابع صفحة ٧٨ و ٧٩)

الحكاية على الاجمال ان ابن الزبير ادعى الخلافة فلك الحرمين والمراق وكاد
 يظلم على الشام وكان امره كل يوم في ازدياد وبلزائه بنو أمية في الشام فلما تولى
 عبد الملك الخلافة ارسل الحجاج الى ابن الزبير فاصره ولاذ ابن الزبير بمكة فنصب
 الحجاج المنجنيق على الزيادة التي كان زادها ابن الزبير (كما هي . تصببه)

يرف كل من نه ادنى الملام بالتاريخ ان الحجاج ما اراد الاقتال ابن الزبير ولكونه
 لانذا بالكعبة اضطر الى نصب المنجنيق على الكعبة ولكن مع ذلك تحرز عن
 عن رمي الكعبة فحول وجهها الى زيادة ابن الزبير . فانظر كيف غير المؤلف مجرى
 الحكاية فصدر الباب بالاستهانة بالقرآن والحرمين . ثم ذكر ان عبد الملك قال للقرآن:

هذا فراق بني وينك . وانه المبح للحجاج ضرب الكعبة بالتجنيق وهدم الكعبة
وإيقاد النيران بين استارها فالتاظر في عبارته بتوهم بل يستيقن ان عبد الملك تفرغ
من بدء الامر للاستهانة بالدين والقرآن والحرمين وجعل الاستهانة نصب عينيه
ومرمى غايته ، وقل ابن الزبير كان امالاه دافع عن مكة او لكونه ايضاً من جنس
الاستهانة بالحرم .

اما تفصيل الواقعة وتعيين ياديء الظلم فهو ان ابن الزبير لما استولى على
الحرمين اخرج بني أمية من المدينة فخرج مروان وابنه عبد الملك وهو عليل
مجدد فاستولى على الشام وصدرت من ابن الزبير افعال تقموا عليه لاجلها فقها انه
تحمامل على بني هاشم واطهر لهم العداوة والبغضاء (١) حتى انه ترك الصلاة على النبي
في الخطبة ولما سألوه عن هذا قال ان النبي اهل سوء يرفهون رءوسهم اذا سمعوا
به (٢) ومنها انه هدم الكعبة ومع ان هدمها لم يكن الا لرمتها واصلاحها ولكن
لم يكن هذا مألوفاً للناس ولذلك تحمروا النبي عليه السلام عن ادخال الحطيم في الكعبة
فأخذوا الحجاج هذه الامور وسيلة لاغراء الناس على ابن الزبير . واهل ابن الزبير كان
مضطراً الى هذه الاعمال ولكن من شريطة العدل ان توفي كل واحد قسطه من الحق فاذا
اعتذرتنا لابن الزبير فبعد الملك احق منه اعتذرا فان ابن الزبير هو الباديء والباديء
اظلم . ويظهر من هذا ان عبد الملك ما اراد الحط من شأن الكعبة وهدم شرفها ولكن
اضطروا الي قتال ابن الزبير فوقع ما وقع عرضاً غير مقصود بالذات ولذلك لما نصب
الحجاج المتاحيق على الكعبة حولها عن الكعبة وجعل الغرض الزيادة التي كان
زادها ابن الزبير ، صرح بذلك العلامة البشاري في احسن التقاسيم . ثم ان من مسائل
الفقه ان البغاة اذا تحصنوا بالكعبة لا يمنع هذا عن قتالهم ولذلك امر النبي في وقعة
الفتح بقتل احدهم وهو متعلق باستار الكعبة وابن الزبير كان عند اهل الشام من
البغاة والمارقين عن الدين

ولو كان اراد الحجاج الاستهانة بالحرم فما كان مراده من رتمه واصلاحه بهد
قتل ابن الزبير وعلوم ان تدمير الحجاج هو اليوم كعبة الاسلام وقبلة المسلمين كافة
اما قول عبد الملك لقرآن هذا فراق بني وينك ، فحقيقته ان عبد الملك كان
قبل اطلالة ناسكاً متطعاً الى العبادة لا يشتغل بشيء من الدنيا ، قال نافع ما رايت
في المدينة اشد ناسكاً وعبادة من عبد الملك ، ولما سألوا ابن عمر اني من ترجع في

الفتوى بذلك ؟ قال « ولد مروان » وكان يقول ابن الزناد الفقهاء في المدينة سبع ائمة عبد الملك . وقال الامام الشعبي ما جالست ائمة الا وجدت عليه الفضل الا عبد الملك بن مروان . ذكر كل هذه الاقوال العلامة السيوطي في تاريخه للخلفاء . فلما جاءته الخلافة وهو يقرأ القرآن تصور خطاوة الامر وان مثل هذا العيب لا يمكن تحمله الا المتقطع اليه فقال محمراً هذا آخر العهد بك . اي الآن لا يمكن الانقطاع الى العبادة وقراءة القرآن كما كان دأبي أولاً ، وليس هذا على سبيل الاستهانة بالدين مطلقاً فانا نرى اشتغال عبد الملك بالفرائض والسنن فيما بعد فهو يصوم ويصلي ويحج قال يعقوبي في تاريخه : واقام الحج للناس في ولايته سنة ٧٢ الحجاج بن يوسف وسنة ٧٣ وسنة ٧٤ الحجاج ايضاً وسنة ٧٥ عبد الملك بن مروان وسنة ٧٦ ابان بن عثمان ابن عفان ، وسنة ٧٧ ابان ايضاً وسنة ٧٨ وسنة ٧٩ وسنة ٨٠ ابان ايضاً وسنة ٨١ سليمان بن عبد الملك (وسرد باقي السنوات فتركناها) وعبد الملك هو الذي كسا الكعبة الديباج فهل هذا صنيع من يريد الاستهانة بالحرم ؟

قال المؤلف

« ويحترز رأسه بيده داخل مسجد الكعبة » (الجزء الرابع صفحة ٧٩)
استمد المؤلف في هذه الرواية بالقد الفرید لابن عبد ربه والاستناد بمثل هذه الكتب في مثل هذه الوقائع هو من احدى حيل المؤلف المعتادة بها فانت تعلم ان حادثة قتل ابن الزبير مذكورة في الطبري وابن الاثير وغيرها من المصادر التاريخية المتداولة الموثوق بها وعليها الممول واليه المرحع لكن الملم تمكن كيفية الحادثة في هذه الكتب وفق هوى المؤلف اعرض عن هذه كلها وتثبت بكتاب هو في عداد المحاضرات وانما يرجع الى أمثاله اذا لم يكن في الباب مستند غيره ومتى لم يخالف الاصول . والمذكور في الطبري وغيره ان عبد الله بن الزبير أصيب في الحجون وقتل هناك قتله رجل من المراد ، وما احتز رأسه داخل الكعبة

قال المؤلف « وهدموا الكعبة »

قدمنا ان الكعبة لم تكن غرضاً للحجاج وانما كان نهب المناجيق على الزيادة التي زادها ابن الزبير ولما كانت متصلة بالكعبة نالت الاحجار من الكعبة ولكن كان أول ما فعله الحجاج بعدما استتب القتال أمره بكنس المسجد الحرام من الحجارة والدم كما نص عليه ابن الاثير فهل كنس المسجد الحرام من الحجارة والدم وهدم الكعبة شيء واحد ؟

أما ما نقل المؤلف عن كفر الوليد وأنه أمر بالصحف فملقوه وأخذ القوس
والنبل وجعل يرميه حتى مزقه وأشد

أنوعد كل جبار شديد فيها أنا ذاك جبار عميد

إذا لقيت ربك يوم حشر فقل لله مزقني الوليد

وقيل هذه الرواية عن الأغانبي فهي من خرافات الأغانبي ، ومعلوم أن صاحب
الأغانبي شيبي دياره شنان بني أمية والحط منهم . وأما الآيات فأثر التوليد ظاهر عليها
ومن له أدنى مسكة بالأدب يشهد أن لسجها غير نسج الاوائل ، فاما جهابذة المحدثين
الموجوع اليهم في نقد الروايات والذين قولهم فصل في هذا الباب فيجددون أمثال
هذه الروايات المختلفة . قال العلامة الذهبي وهو رأس الحديث ومرجع الرواية « لم
يصح عن الوليد كفر ولا زندقة بل اشتهر بالحرق والتلوذ فخرجوا عليه لذلك »
(تاريخ الخلفاء للسيوطي ترجمة الوليد)

ثم ان هناك أمراً آخر وهو ان السابق على الوليد وقاته هو خليفة اموي ،
فكيف ينسب استهانة الدين الى خلفاء بني أمية ماتهم . ثم ان هذا الذي عزا اليه
صاحب الاغانبي الاستهانة بالقرآن قد ذكر له صاحب المقدم ما يلي عن تنظيمه
للقرآن وتفخيمه شأنه وحث الناس على حفظه وتمهده قال صاحب المقدم (١) انه
شكا رجل من بني مخزوم ديناً لزمه فقال (الوليد) افضيه عنك ان كنت لذلك
مستحقاً قال يا امير المؤمنين كيف لا اكون مستحقاً في منزلي وقرابي ؟ قال قرأت
القرآن ؟ قال لا ، قال فادن مني فدنا منه فنزع الممامة عن رأسه بقضيب في يده
فقرعه قرعة وقال لرجل من جلسائه ضم اليك هذا المايح ولا تقارقه حتى يقرأ
القرآن . فقام اليه آخر فقال يا امير المؤمنين افض ديني ، فقال له أقرأ القرآن ؟ قال نعم
فاستقرأه عشر من الاقال وعشراً من براءة فقراً ، فقال لهم نفضي دينك وانت اهل
لذلك . فانت ترى ان الوليد بعد من لا يقرأ القرآن علاجاً والمؤلف بعد الوليد علاجاً
فاما ما ذكره المؤلف من اقوال الحجاج وخالد القسري وأهما كأننا يفضلان
الخلافة على النبوة فمع ان اكثر هذا الاقوال مأخوذ من المقدم الفريد وهو من
كتب المحاضرات لنا نحتاج الى اللب عن الحجاج وخالد فلمنا من اشرار الامة
حقاً ولكن كم لنا من امثال هؤلاء الملاحدة في الدولة الباسية كالمجاردة وابن
الرواندي الذي عمل كتاباً ود فيه على القرآن وسماه بالامع فاذا كان الباسيون :

مستولين عن اوزار هؤلاء عند المؤلف فكذلك بنو أمية . وان كان عبد الملك والوليد يرتضيان بسوء اعمال الطهباج فسلوم ان غيرهما من بنى أمية كانوا ناطقين عليه كافة حتى ان هشاماً قال « هل الطهباج استقر في جهنم او يهوى الى الآن » وما وصل الى هشام ان خالداً القسري استخف بامرأة مؤمنة عزله من الامارة وسجنه كما ذكره ابن خلكان

والحاصل ان المؤلف لو خص رجلاً او رجائين من بنى أمية بالطاعن لا عرفنا به ولكن من سوء مكيدة المؤلف انه يجعل الفرد جماعة والفرد توها والناذر عاماً والشاذ مطرداً

﴿ جور بنى أمية ﴾

سما بمظالم مختصر ، وأخطأها بشائع جئكيزخان ، واطلنا على حاجته أبدي التره ، نواله - لو صدق المؤلف - هم ما كانوا أشد قسوة ولا أنظع أعمالاً ولا أمانك دماء ولا أجمع لانواع الفتك من بنى أمية قال المؤلف « حتى في أيام معاوية فإنه أرسل بسر بن أرطاة وأرسل معه جيشاً ويقال انه (أي معاوية) أوصاهم أن يسيروا في الارض ويقتلوا كل من وجدوه من شيعة علي ولا يكفوا أيديهم عن النساء والصبيان (الجزء الرابع صفحة ٨٢) قبل أن أكتشف عن جلية الامر لا بد من تقديم مقدمة ، وهي ان المؤلف مدح بنى العباس وجعل أعمالهم مناطاً للعدل ودلالة على الرفق فقال (ولا غرابة فيما تقدم من عمران البلاد في ظل الدولة العباسية فان العدالة توطد دعائم الامن واذا أمن الناس على أرواحهم وحقوقهم تفرغوا للعمل فتعمر البلاد ويرفح أهلها ويكثر خراجها (الجزء الثاني صفحة ٨١)

وعلى هذا اذا وجدنا بنى أمية معادلين لبني العباس في جميع أعمالهم سواء بسواء كان اختصاصهم بالدم دون بنى العباس جوراً فاحشاً وميلاً عظيماً . ثم ان هناك أمراً آخر وهو ان المؤرخين بأسرهم كانوا في عصر بنى العباس ومن العلوم انه لم يكن يستطيع أحد أن يذكر محاسن بنى أمية في دولة العباسيين فاذا صدر من أحد شيء من ذلك فانه كان يقاسي قائلها أنواعاً من الهتك والايذاء ووخامة العقاب ، وكل ثامن أعمال هذه في أسفار التاريخ . ومع اتنا نتخبر بأن مؤلفي الاسلام كانوا أصدق الناس رواية وأجرأهم على اظهار الحق ما كان يجمعهم عن بيان الحقيقة ساطة ملك ولا مهابة

جائر ، ولكن مع ذلك فرق بين تعدد الكذب والسكوت عن الحق ، ولذلك نستقد
انهم ما قالوا شيئاً اقترأ على بني أمية ولكن ان قلنا انهم كثيرا ما سكتوا عن محاسنهم
فذلك شيء لا يدفع وليس فيه غض منهم

أما بنو العباس : كانوا في عصرهم ولاية البلاد ، وملاك رقاب الناس ، رضاهم
الحياة ، وسخطهم الموت ، فالواقعة فيهم والاخذ عليهم ما كان يمكن الا بعد مخاطرة
النفس والاتحام في الهلاك ونهب النفس للموت

وجئنا الى قول المؤلف ان معاوية امر بقتل النساء والصبيان . اعلم ان هذه
الواقعة اي اوساك (بسر بن أرطاة) الى شبيعة علي من اشهر الوقائع المذكورة في
سائر كتب التواريخ وليس في احد منها قتل النساء والصبيان بل فيها ما يخالف هذه
الرواية . قال المؤرخ البغدادي « ووجه معاوية بسر بن أرطاة وقيل ان أبي أرطاة العامري
من بني عامر بن لؤي في ثلاثة آلاف رجل قتال له سر حتى تم بالمدينة فأطرد أهلها
وأخف من سررت بها وأهب مال من أصبت له مالا ممن لم يكن يدخل في طاعتنا
وأوهم أهل المدينة أنك تريد أن تسهم وانه لا براة لهم عندك ... حتى تدخل مكة ولا
تعرض فيها لاحد وارهب الناس فيما بين مكة والمدينة ثم امض حتى تأتي صنعاء
فان لنا بها شيعة وقد جاءني كتابهم . فخرج بسر فجعل لا يمر بمحي من أحياء العرب
الا فصل ما أمره معاوية (البغدادي طبع أوروبا صفحة ٢٢١ من الجزء الثاني)

فترى في هذه العبارة انه لم يكن هناك الا تخوف وتمديد وايهام . ولما رأى المؤلف
ان المصادر التاريخية الموثوق بها لا يوجد فيها ما يوافق هواه جنح الى الاغاني ونقل
أمر معاوية بقتل النساء والصبيان ثم اعتذر عن معاوية بأن المنظون خلاف ذلك
لجله ودهائه ، والنظن ان معاوية أطلق يد بسر ولم يبين له حدودا وكان بسر سفاكا
للدماء فلم يستن طفلا ولا شيخا

قد قلنا ان الاغاني من كتب المحاضرات فاذا كان الامر هينا والحديث فكاهة
أو تسللا من كد العمل الى استراحة فلا بأس به وبأمثاله أما اذا كان الامر ذا بال
وكانت الواقعة معترك الاختلاف ومتعذر الالهوام ايضا لشأن أو هادما لاساس فأمثال
هذه الكتب لا يؤذن لها ولا يلتفت اليها مطلقا

ثم ان الرجل (أي صاحب الاغاني) شيعي اذا جاءه شيء مما يشين معاوية ويدنس
وجد في نفسه ارتياحا الى قبوله ولو كان من أوهن الاحاديث وأكذبها

نعم ان بسر بن ارطاة قتل طفلين ولسكن القتل لم يتجاوز الاثني (١) فأين هذا من قول المؤلف

« وكان بسر سفاكا للدماء فلم يستثن طفلا ولا شيخا »

قال المؤلف « فاذنا كان هذا حال الصالح في أيام معاوية مع حلمه وطول اناته فكيف في أيام عبد الملك مع شدته وفسكه فهل يستغرب ما يقال عن قتلك الحجاج وكثرة من قتلهم صبورا ولو كانوا ١٢٠٠٠٠ (الجزء الرابع صفحة ٨٣)

نعم قتل الحجاج مئة ألف أو مائتين ولسكن أين هذا من صنعة أبي مسلم الخراساني القائم بدعوة بني العباس المؤسس لدولتهم فإنه قتل صبورا بدون حرب ما يبلغ ستمائة ألف وقد اعترف به المؤلف في هذا التأليف نفسه (الجزء الثاني صفحة ١١٢) والمؤلف ينتحل لذلك عذرا ويحسبه من طبيعة السياسة . فالحجاج أحق بالمعذرة وأجدد بالفقوة ، فان الحجاج عربي قح طبعه الجفاء والقسوة . أما أبو مسلم فجمي تربى في حجر التمدن ، وغذي بلبان الظرف ودمائة الاخلاق (١١)

أما قوله إن عبد الملك كان أشد وطأة منه (أي من الحجاج) فلم يأت عليه بشاهد غير غدره بعمر بن سعيد ، وأين هذا من غدر التصور العباسي بأبي مسلم الذي هو رب الدولة العباسية ، ولولاه لما قامت للعباسيين قائمة ، ولا كان لهم ذكر ، وكذلك غدر المنصور بابن هيرة

وغاية ما يقضى منه العجب ان المؤلف بعدما ذكر قتلك بني أمية بقوله : « وقد قعتهم هذه السياسة (أي سياسة القتل) في تأييد سلاطنتهم (قال) صارت سنة من ملك بعدهم من بني العباس وغيرهم » وأنت تعلم ان المؤلف يرى ساحة العباسية من الجور والظلم فضلا عن القتل ، فهل هذا تناقض في القول أو أراد بهم قضاة قضاة من حيث لا يعلم ؟ لا والله لا هذا ولا ذاك ، بل هي من مكاييد المؤلف التي لا يهتدي اليها الا نطن خبير لطوية الرجل وكامن ضفته

(١) المئارج : في هذا الذي بل فيما أورده الناقد في هذه المسألة نظر فقد نقل اللفظ في الاصابة عن ابن يونس ان معاوية وجه بسر الى اليمن والحجاز سنة أربعين « وأصره أن ينظر من كان في طاعة علي فيوقع بهم قتل » فهذا كلام المحدثين لا الشيعة وأهل الحضرة وقد اشبه في الاصابة الى انه لا ينبغي التشاغل باخبار بسر الشهيرة في الفتاوى لما قيل من ان له صحبة . وهل يقتل ان يكون ايقاعه بالمطمين لملي قاصرا على قتله طفلي ابن عباس رضي الله عنهما ؟؟